

قصة تعلم
محمد عبد الرزاق

فرسان المقبرة الكبيرة

أو استهزت أو عبثت أو جهلت هلك الآلاف : الناس كلهم هلكت إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكت إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكت إلا المخلصون ، وقال أبو حامد الغزالي أيضا : العلم لا بد له من العمل ، والعمل لا بد لكماله من الإخلاص ، الإخلاص هو ألا يريد العبد بعمله أو علمه غير وجه الله جل جلاله . استعدادا أيوم النود عن الحق ، كنا نقوم برحلات للصحراء . صبية تقودهم روح التوذب . كنا نقطع الاميال فوق الرمال لنصل الى شجرة نبق انشق عنها حجر ، فنقطف بعض الثمار رمزا للانتصار . ها هي الرحلات القصيرة في صدر الصبى تمنحنا عصارة فكرها كي لا نفع أسرى المقبرة .

الرائحة آنفذ من أي رائحة صفت انوفنا وأشد نكرا . رمثة لا بد . أو تنتشر رائحة الرمثة لنفطي كل هذا الاتساع ؟ قطع من الاغنام دهمته صاعقة . هنا في الهزيع الاخير من النزوع الاخير حيث ترقص على شعره رفيعة كحد السيف تفصل بين الحياة والمسوت وتحسها انت المحاصر في كل لحظة تمر ، ونفس يخرج ، وغضبو يتحرك : قطع من الاغنام دهمته صاعقة . لتكن جمالا معثرة . مقبرة .. مقبرة حيوانات نافقة . حتى مع هذا التفسير الاخير لا تروح انوفنا . لا يمكن ان تتسع مقبرة مهما كبرت لتتشر كرائها الى مسافة تقرب من الميل قطعناها بأعين كليلية على أرجل وارمة . حتى لو كانت المقبرة ذاتها بهذا الاتساع الخرافي ، وغصت لظننا منذ ايام بالرمام فلا يمكن ان تنفت مثل هذه الرائحة التي فاقت كل نتن . هذا مجرد فرض ، فمن غير العقول ان تتحقق هذه المقبرة الجرافية على الطبيعة . او هي - على الاقل - تم تتحقق في يوم من ايام حياتنا . ولقد جمعنا هذه المتخيلة من الحالات المنفردة التسي صادفتنا . كل منا لا محالة - فنحن لا نعيش في كمسبرج او موناكو - قد صادف كلبا ميتا في أحد الأزقة ، او بقرة بقرت بطنها على شط غير مطروق التربة ، او حمارا نافقا منتفخا بجوار شريط للسكة الحديد . فلنفرض ان هذه الجيفة - الكلب او البقرة او الحمار - اهلتم اياما بسبب ما . وليكن أقرب الاسباب الى الواقع: الخلاء . مكان بالذات من الشريط او التربة بلا رواد دائمين . خرابة زقاق مطحون اهل بهوم الحياة العتيقة ومشاكلها المعقدة المسيرة الحل : لقمة العيش والكسوة والظاء ولبن العظام والربو والتدن . سرت مرة على شريط القطار مصرا على رؤية آخر الدنيا التي توهمتها عند نهاية الشريط . تخطيت الشريط وانحدرت الى السفح . طار

خطرنا ليست بطيئة . امامنا اميال يجب ان نقتطعها من الليل الموجل في الوحشة . مع الموت في الليل تتعطل انبيون ، وتشد فيك بقية الحواس . جعلنا الليل معاشا والنهار تابسا . النهار ليننا الذي نخشاه . قبل اول خيط عنكبوتي من خيوط الفجر الكاذب ، علينا ان نترك السعي الحثيث الى سعي حثيث : مواصلة الرحلة الى البحث عن ماوى .. مخبا . لا تبطيء فيطول بك المشوار وندهمك الاخطار . اخطار اقلها هولاء واشدها هولاء ذئاب ضاربة متربصة في العتمة . في العتمة يستوي كل شيء : الذئاب والقطط والاشجار والاحجار والاصدقاء والاعداء . بحاسة الشم تتعرف على الجميع ، غير انها لا تقوى وتتحفز الا في اللحظة الحاسمة الخطرة الاخيرة ، تكون امامك لحظة واحدة فقط .. حاسمة .. خطيرة .. واخيرة . وعليك ان تتصرف وحده في اعصاب الظروف واشدها حلقة . تعطلت حاسة الشم منذ دخلنا المقبرة . قرأنا المانعة . عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : من قرأ تبارك الذي بيده الملك كل ليلة منعه الله بها من عذاب القبر . اصبح اعتمادنا الاساسي على السمع .. اذا لم تسمع دبيب النملة فانت هالك . في الظلام كل صوت مصدر محتمل لخطر . عبث الهواء بالهشيم خطر . دبيب النمل خطر . يا ايها النمل ادخلوا مسانكنم . لسنا جنود سليمان . لست نذيرا منكم . لكن ادخلوها .. رحمة بنا لا بكم ادخلوها .. مسانكنم .

خطواتنا ليست سريعة . الرحلة لن تنتهي بنهاية الليل . امامنا ليال طويلة يجب ان نقتطعها من الزمن في لهفة ، وعلى بطوننا الحجارة ونحت السنننا حباط الزلط . السرعة تبدد القوى المدخرة عنوة من الجوع والعطش والورم والهزال . اذا بددت قواك قصدت الى الايد أسير المقبرة . قل رأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين . كنا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نسميها المانعة . التوازن شيء هام وضروري في مثل هذه الرحلات . لم نجرب رحلة مثلها ، وما كنا بقادرين على تصور مثلها . ظننا الرحلة الاواسي التي لم نشترك فيها صدفة لن تحدث مرة اخرى ، وان حدثت فيقانون الصدفة وحده ، ولقانون الصدفة في مثل هذه الرحلة شروط دونها مئات الاعوام ، رغم كوننا غير مجربين فقد افادتنا الرحلات الصغيرة التي مرت بنا في صدر الصبا . لم تكن صبية عاطلين . كانت روح الفروسية تحركنا . كم من مرة تصورنا الباطل امامنا ، وانحق في جانبنا نفود عنه . رجل لرجل . حق لباطل . لكننا لم نتصور ان نتحكم مقاعد بعيدة في تحريك الآلاف . فان غفلت

غراب . صدمت وجهي الطفل زوبعة من ذباب . نفذت الرائحة . نظرت الى السطح بيون هلمة . صفنتني الجيفة . تقيت كل ما في جوفي . عدت الى بيتي معلولا دون ان اشاهد اخر الدنيا . ما دمنا في عالم النخيل . فلنفترض صدور فرمان سلطاني او امر يونانرتي ببناء مقبرة عظيمة وجمع الرمم فيها تطهيرا لبر مصر . ولنفترض - وهذا من باب المبالغة طبعاً - اننا بعض عمال هذه المقبرة الكبيرة . او كانت تعقب بمثل هذا التنن ؟ رغم انه فرض . وفي عالم انفروض يصبح المستحيل ممكنا . لم تصدق انوفنا هذا الممكن المتصور القائم على فرض مستحيل .

نحن اشباح تسيير . مساحات باهتة بلا معالم في الجحيم تسيير . ليس الجحيم ثلجا كذلك الذي يعذب به الله المخطئين من الجن . وليس نارا مستعرة كذلك التي يعذب بها المخطئين من الانس . انه جحيم الخبائث . جحيم لم نسمع عنه من قبل . القبر اما روضة من رياض الجنة او حفرة من حفرة النار . انه عذاب القبر . الفتيان يشغل ادمقتنا . الرغبة الملحاحة في القيء تدمرنا . في اجوافنا ما يكفي لاشباعها ، لكن شيئا ربما هو خوف الاخطار او خشية التلكؤ يكبتها ، يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم ، لو قال جل شأنه بردا وسكت لاهلك البرد سيدنا ابراهيم الخليل . هكذا قال الشيخ يوما في حصة الدين ، يا رائحة كوني عطرا وسلاما . او قلت عطرا فقط لانانا العطر . يا رائحة كوني سلاما فقط . . سلاما . .

ما زال السؤال يطرح نفسه : ما كنهها ؟؟ لدينا الاجابة الصادقة ، لدينا الحقيقة الحقه لكننا نتناقل عنها . نعرفها ولا نصدقها باحثين في جنيات الوهم عن تبرير افضل يريحنا . ما اكذب النفس البشرية حتى على نفسها . نفترض الفروض وتتجاهل الواقع ، تهرب منه . كان يزحف على افتدنتنا فنطرده في التو عمدا مبررين طمس الحقيقة بالمدة الوجيزة . كيف تفر منه وهو محيط بك . لاننا نمي ونتناقل . ما ان انفرتزت قديمي في قطعة يابسة من الارض حتى اعترتني رعشة اعقبتهها دهشة . دهشة مفتعلة لا ريب : من أين تهذه الارض بايبوسة ؟ لكن الصديق جذبني دون تفكير واحنى ظهري للمواجهة ،

غير عابء بما قد يجره التلكؤ من ابتعاد عن الاشباح . المساحات ذات الحدود الوهمية ، المحدودة بالكاد التي تشق الظلام ماخرة عيابه وهي تخشى التخلف عن ملاحقة افرادها . لم تكن قد تعارفنا من قبل ، جمعتنا الرحلة وربطتنا باوتق العرى . كانت اصدق من اي تعارف . كنا نسير كالتطيع . . القطيع ته قائد . . مرشد ، ونحن لا هاد لنا سوى حواسنا . الاذان المرهفة ، والرؤية الكلييلة التي لا ترى ولكنها تحس تقوم بدور لا بأس به هنا .

من تخلف ابتعد ، ومن ابتعد هلك ، لكني تخلفت لحظة تكفي للانحناء كاحدب عجوز قدمه والقبر ، ووجهه وقدمه . كنت موقنا وانا اهم بالانحناء من الحقيقة : جثة متحللة هذه وليست ارضا يابسة او بركة آسنة . والجثة لانسان . والانسان رقيق نضال في موقع مضروب مهول . لامست عيناى وجهه . كاني لم اكن اعرف . فزعت وكنت صرخة . في الحق كانت الحقيقة الحقيقة ارفع من الحقيقة المتخيلة . اعترتني رعشة وفزت فقرة هائلة فانفرتزت قديمي في جثة اخرى . قفزت كمن يرقص على الصراط محاذرا اشد الحذر ففاصت في الثالثة . . ورابعة . . وخامسة . .

كلما حاولت انفرار من الهول صدمني الهول . كانت الاشباح كلها تقفز هلمة . تود لو تطير ، تسبح في انواء . كنا وسط تجمع بشري رهيب . سقطت على وجهي فنشبت اظافري في ماذا ؟؟ . اظافري ناشبة في لحم طري ، صرخت . . هذه المرة صرخت صرخة مدوية . لم ارفع وصرخت صرخة جريح تفاجئه النهاية . نهضت واخذت اعدو بمعسدا يدي عن جسدي . كانما كنا نجري على جبل نار ، واذا فنت الحبل منا تعقبناه باصرار . صراط ثم يكن مستقيما في هذه الليلة . عدونا مسافة لا تقدر بلا وعي ، الا بالفرع وتلافي الجثث . . الرفاق . عندما ابتعدنا تماما عن نطاق الرائحة تساقطنا هنكى على انصخور كطيسور قتلته السموم يوم رش القطن . كالمسورين رغم قوانا المتهاكة اخذنا نعص الارض وندعك ابدينا واقدامنا في الحصى وسنون حادة تشجبها ، ورمال دقيقة تهلا الفجوات المشجوبة الدامية ، وافرازات من الانوف والافواه والعيون تسييل . قلنا في وسط الظلام : تعاليلي يا مه . وجأرنا باعلى اصواتنا : يابا .

محمد محمود عبد الرازق

القاهرة

صدر حديثا

قراءة يابسة

قلم

محمد سعيد

منشورات دار الآداب

التمن ليرتان لبنانيتان